

مع الرفيق خير الله ماضي بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من الجنوب

الرفيق خير الله ماضي هو طبيب خريج معاهد بلغاريا. كان بقرار من الحزب مديراً للمستشفى الحكومي في بلدة جديدة مرجعيون في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ذلك أننا كنا قد قررنا في قيادة الحزب بعد احتلال القوات الإسرائيلية للجنوب أن يبقى العدد الأكبر من الشيوعيين في قراهم وأن يظلوا في مواقفهم خلال الاحتلال شيوعيين من دون التخلي عن انتمائهم إلى الحزب. ذلك أننا رأينا أن خروج الشيوعيين من قراهم في ظل الاحتلال سيجعل القرى الحدودية على وجه الخصوص حكراً على القوى الرجعية والقوى المرتبطة بالاحتلال. وطلبنا من الرفاق الذين كانوا مكلفين بالعمل المقاوم أن يخرجوا لوحدهم من القرى وأن لا يحملوا بخروجهم المسؤولية عن نشاطهم لرفاقهم الآخرين. وعلى قاعدة ذلك القرار طلبنا من الرفاق الباقين أن يمارسوا نشاطهم سياسياً كشيوعيين وأن لا يترددوا عندما يطلب من أحدهم القيام بمهمة لها علاقة بمصالح المواطنين في القرى. لذلك عندما سأل الرفيق خير الله قيادة الحزب إذا كان بإمكانه القبول بمهمة مدير للمستشفى الحكومي في مستشفى جديدة مرجعيون لم نتردد بالموافقة على اقتراحه. وكان من المبررات التي قدمها للحزب أن تنشيط المستشفى سيمنع أهل المنطقة من الذهاب إلى إسرائيل للمعالجة في مستشفياتها. وقد قام بتلك المهمة على أفضل وجه.

قررت في الأيام الأولى التي أعقبت انسحاب القوات الإسرائيلية من الشريط الحدودي أن أقوم بزيارة مع الرفيق نديم عبد الصمد إلى الشريط الحدودي بدءاً من جديدة مرجعيون وصولاً إلى الناقورة. ولدى وصولنا إلى بلدة بلاط المجاورة لجديدة مرجعيون ذهبنا لزيارة رفيقنا خير الله ماضي. طلبنا منه على الفور أن يعطينا كامل التفاصيل التي كانت لديه حول المرحلة التي سبقت وتلت انسحاب القوات الإسرائيلية. روى لنا التفاصيل كاملة. وكان من أغرب ما سمعناه منه أولاً أنه بمجرد خروج القوات الإسرائيلية من المنطقة استولت حركة أمل على المستشفى الحكومي وأخرجت خير الله من مسؤولياته. ومنعت أيّاً كان ممن كانوا محسوبين على الحركة الوطنية من الدخول إلى المستشفى بمن فيهم حبيب صادق ابن المنطقة. وكانت لذلك دلالة سائير إليها فيما بعد.

لكن المهم والأساسي في رواية الوقائع المتصلة بتلك المرحلة هو المثير للدهشة. فقد أخبرنا الرفيق خير الله أنه بدأ يعاني قبل ثلاثة أشهر من انسحاب القوات الإسرائيلية من الصعوبات في المستشفى. إذ كانت القوات الإسرائيلية بدأت تقلل من دعمها للمستشفى. الأمر الذي جعل خير الله

يذهب إلى العاصمة بيروت مرتين. اتصل في المرة الأولى بوزير الصحة الدكتور كرم ابن المناضل الشهيد شكر الله كرم ليعلن له بأن المستشفى مهدد بالإقفال نظراً للتخلي التدريجي للقوات الإسرائيلية عن دعمه. انتظر ما يمكن أن يقوم به وزير الصحة لدعم المستشفى من دون جواب. فذهب مرة ثانية إلى العاصمة والتقى بزوجة رئيس الجمهورية إميل لحود وطلب منها أن تخبر الرئيس بأن إسرائيل تستعد للإنسحاب وأن المستشفى في خطر. وكان من أخطر ما واجهه في المستشفى معالجة ١٤ مريضاً كانوا بحاجة إلى غسل الكلى وأن المستشفى لم يعد يملك المال الضروري لتقديم الأجور للأطباء الذين كانوا يأتون من النبطية لمعالجة هؤلاء المرضى. انتظر ولم يأت جواب. وسرعان ما وجد نفسه في موقعه كمسؤول عن المستشفى أمام وضع خطير، لا أموال ولا أدوية ولا أطباء ولا ممرضين إذ كانوا بدأوا يذهبون بالتدريج لأنهم لم يعودوا يتلقون أجورهم. وخشية منه على المرضى الـ ١٤ اقترح على الأطباء الذين كانوا يعالجونهم أن يتابعوا عملهم من دون أجور فوافقوا.

ولم تكد تنتهي الأشهر الثلاثة التي كان يعاني خير الله فيها داخل المستشفى حتى أكملت إسرائيل انسحابها بشكل نهائي من الشريط الحدودي. والجدير بالذكر أن ذلك الانسحاب كان مقرراً من قبل القيادة الإسرائيلية. لذلك جاء الانسحاب من دون مقاومة تذكر من قبل القوات الإسرائيلية التي كانت تطاردها على امتداد الحدود قوات المقاومة المسلحة التابعة لحزب الله. وهو الخروج الذي أعطي في أدبياتنا صفة المعركة البطولية لتحرير الأرض من الاحتلال باسم مقاومي حزب الله منفردين.

بعد الانتهاء من رواية خير الله لتلك الوقائع لنا أصابنا ذهول وكنا لا نصدق. وكيف لنا أن لا نصدق رقيقاً أميناً لنا في تلك المهمة التي كان قد كلف بها. قلنا له اصمد وسنرى. وتابعنا نديم وأنا مشوارنا في الطريق إلى الناقورة مروراً ببعض القرى التي توقفنا فيها عند بعض رفاقنا نستكمل معهم معلومات عن رواية خير الله. وكان من أهم تلك اللقاءات لقاءنا مع الرفيق ابراهيم نعيم بزي المناضل الشيوعي القديم في بلدة بنت جبيل. وكانت روايته قريبة في بعض تفاصيلها مما رواه لنا خير الله. لكن من أخطر ما سمعناه منه وممن التقينا بهم روايتهم للوقائع التي تلت انسحاب القوات الإسرائيلية. أتوقف هنا عند موضوعين. الأول هو أن ما كان متوفراً في المنطقة من ماء وكهرباء خلال الاحتلال لم يعد متوفراً بعد انسحاب القوات الإسرائيلية. وصار الأهالي مجبرين على دفع أثمان تفوق قدرتهم لتأمين المياه والكهرباء. وكان المسؤولون عن بيع المياه والكهرباء مناصفة بين مسؤولين حزب الله وحركة أمل. أما الموضوع الأخطر هو أن بعض من كانوا يعملونهم لإسرائيل

ممن قرروا البقاء في القرى ولم ينسحبوا مع القوات الإسرائيلية سرعان ما أعلنوا توبتهم وقبلت توبتهم وتم احتضانهم من كل من مسؤولي حركة أمل وحزب الله الذين كانوا قد صاروا أوصياء على المنطقة بعد الانسحاب الإسرائيلي.

لم تنته الرواية عند هذا الحشد من المعلومات. فبعد ذلك التاريخ بشهرين أو ثلاثة، كما لم أعد أذكر التاريخ بالتحديد، فوجئت بزيارة خير الله لي في منزلي في الساعة الثانية عشرة ليلاً ومعه أحد الرفاق. استقبلتهما وعلى الفور توجه لي خير الله قائلاً أنقذني يا رفيق أنا متهم من قبل حزب الله أنني عميل إسرائيلي. فاتصلت على الفور بصديقي القاضي نصري لحود شقيق رئيس الجمهورية المفوض السابق في المحكمة العسكرية وأخبرته بما جرى. فقال لي لا تقلق. وطلبت من صديقي حبيب صادق أن يتصل بمعارفه في المحكمة العسكرية للغرض ذاته. وقلت لخير الله اطمئن. وانتهى الأمر بسلامته.

لكنني فوجئت بعد فترة من الزمن نبأ وفاة خير الله تحت تأثير مرض عضال. فبكيت عليه وعلى وطني.